

# أحمد وصفي زكريا

## مؤرخ الشام ورائد المؤلفين الزراعيين

\* زكريا أول من درس العلوم الزراعية في اللغة العربية

\* قصة الباخرة التي غرقت في نهر الفرات؟

\* الثياب القديمة تنقل الموت للبدو؟

المهندس أحمد وصفي زكريا من أقدم المهندسين الزراعيين في سورية وأكثر من خدم حرفة الزراعة عملياً ونظرياً عن طريق مؤلفاته وهو معروف بالأوساط الرسمية والأدبية والأثرية في القطر العربي السوري والعديد من الأقطار العربية الشقيقة وهو أول من أسس المدارس الزراعية في هذه الأقطار. له شغف بالتاريخ والجغرافية وأحوال السكان من حضر وبدو، ويهوى الرحلات والأدب.

كان عمله يقتضيه التجوال في جميع الأراضي السورية فكان الرجل نشيطاً مجداً في عمله لا يترك شاردة ولا واردة يسأل أهل القرى والأرياف عن اسم المكان أو القناة أو البناء الأثري يلاحظ بنفسه الأمور الهامة في المنطقة ويدون مشاهداته ثم يراجع أصحاب العلم في الموضوعات الهامة ويرجع إلى بطون الكتب العربية والأجنبية فيستقصي ويستقصي. ولقد نشر شيئاً من معلوماته في كتاب هام اسمه الريف السوري الذي كان يعتزم إصداره في عدة أجزاء بحيث تشمل جميع المحافظات السورية ولكن المؤلف لم يلق التشجيع من أحد؟.

توفي في 1964/4/21 في منزله بدمشق عن عمر يناهز الـ 75 سنة بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط حيوانات بلاد الشام

والجدير بالذكر أن الأستاذ غسان سبانو يقوم بمراجعة هذا الكتاب الهام قبل أن يدفعه إلى الطباعة.

### حياته:

ولد سنة 1889 في دمشق وقد أتم فيها دراسته الابتدائية والثانوية ثم انتقل إلى استنبول والتحق بالمدرسة الزراعية العليا وتخرج منها عام 1912 مهندساً زراعياً وقد كان أول عمل تقلده في زمن الحكومة العثمانية هو التدريس في المدرسة الزراعية في سلمية التي كانت قد أنشأت حديثاً آنذاك وصار مديراً لها. في سنة 1919 حينما تألفت الحكومة العربية الفيصلية كلف بمديرية مدرسة سلمية الزراعية التي كانت أحرقت وأغلقت في تلك الفترة فجاء إلى المدرسة وأعاد فتحها وبناءها وظل فيها خمس سنوات.

كان أول من درس العلوم الزراعية في اللغة العربية ووضع مصطلحاتها وألف المؤلفات الزراعية في سورية مع التنويه بأن كتبه تعتبر من أهم وأدق المصادر العلمية في الميدان الزراعي على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على صدورهما.

أقام في اليمن سنتين ونشر مجموعة من المقالات عن اليمن في مجلة المقتطف المصرية وبعض التي كانت رائجة بين المثقفين وبعض الصحف السورية، ثم أمضى فترة من الزمن في الأردن وفلسطين.

في سنة 1943 عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة بقي في هذه الوظيفة إلى أن أحيل على التقاعد بمناسبة بلوغه السن القانونية سنة 1950.

## مؤلفاته:

ترك الأستاذ أحمد وصفي زكريا الكثير من المؤلفات سواء في حقل اختصاصه المهني كمهندس زراعي أم في حقول أبحاثه التاريخية والأثرية والجغرافية ففي مجال اختصاصه المهني ترك الآثار التالية:

\* الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية 3 أجزاء صدر عام 1925.

\* المفكرة الزراعية وهي تحوي خلاصة الفنون والأعمال الزراعية وقد صدرت عام 1930 ومما جاء في مقدمة هذه المفكرة:

(خطر لي أن أحذو حذو الأوروبيين الذين يضعون في كل فن وحرفة كتباً يدعونها مفكرة يجعلونها صغيرة الحجم كبيرة النفع إذ يحشرون فيها بجمل وجيزة وأحرف دقيقة ما قل ودل من كل بحث ومطلب في الفن الذي يعالجونه وتكاد لا تجد هناك طبيباً أو مهندساً أو ضابطاً أو صانعاً أو زارعاً أو تاجراً إلا ويحمل في جيبه كتيباً من هذا النوع يحوي خلاصة القواعد والنسائير وزبدة الجداول التي لا يستطيع الإنسان أن يحفظها في ذهنه في كل زمان أو يقتني كتبها المفضلة في كل مكان.. ولما كان أرباب الزراعة عندنا محرومين من مفكرة شبيهة بما ذكرته رأيت أن أقوم بهذا العمل فضميت على التقويم الذي نوهت عنه أبحاثاً وجيزة من شتى الفنون الزراعية.. وزدتها نبذاً مما له علاقة بالزراعة من بقية الفنون كالجغرافيا الطبيعية والنباتية والزراعية والجيولوجية للبلاد العربية السورية وبعض قواعد الحساب والهندسية الطبيعية والظواهر الجوية.."

\* زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام وهو في جزئين.

**\* في المجال التاريخي والأثري والجغرافي:**

\* جولة أثرية في بعض البلاد الشامية صدر عام 1934.

\* عشائر الشام صدر في جزئين عام 1945 . 1957.

\* الريف السوري "محافظة دمشق" في جزئين وقد صدرا بين 1955 . 1957.

\* ذكرياتي عن وادي الفرات عام 1916 صدر بتحقيق الأستاذ المرحوم عبد القادر عياش عام 1968.

\* أما المخطوطات التي تركها فهي:

\* حيوانات بلاد الشام البرية.

\* معجم عن الطيور في 350 صفحة وقد قدمه لوزارة الثقافة في عام 1962 لكن الوزارة أعادت الكتاب إلى مؤلفه بحجة عدم وجود المال، مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ وأحوال اليمن.

\* يضاف إلى ذلك العديد من الأبحاث والمقالات غير المنشورة التي وجدت في أدراج مكتبه بعضها في اللغة العربية وبعضها الآخر باللغة التركية.

\* المقالات الأثرية

1 . الخطط والآثار في بعض بلاد الشام نشرت في مجلة الحوليات الأثرية السورية العدد 1 . 2 "1951".

2 . المروج الاستراتيجية المنسية في التواريخ العربية نشرت في مجلة الحوليات العدد 3 "1953".

3 . مدينة أقاميا الأثرية نشرت في مجلة الحوليات العدد 7 "1957".

\* قراءة أولية في كتاب عشائر الشام:

يقع الجزء الأول من هذا الكتاب في حدود الـ 290 صفحة من الحجم المتوسط وقد ذكر في قسمه الأول مقدمات وجيزة عن البادية وجغرافيتها وجوها ومائها ونعيمها وشقائها وآثارها وعمرانها الغابر والحاضر. ثم عن تاريخ البدو القديم والحديث وهجراتهم وأفاعيلهم في بلاد الشام ثم عن أوصاف البدو وأحوالهم الاجتماعية وأخلاقهم ومزايهم في الماضي والحاضر ثم عن عادات البدو في المعيشة والغزو والملبس والمسكن واللهو والزواج والأعراس والضيافة.

ثم عن التشريع البدوي وكيفية المرافعة وأصول الصلح بين الأفراد

والعشائر، أما القسم الثاني فقد تضمن تعداد العشائر وتعريف أنسابها وأحسابها ومنازلها وأخبارها الماضية وأحوالها الحاضرة لكل منها من جنوبي حوران إلى أقصى شمالي الجزيرة الفراتية.

وقد تضمن الجزء الأول معلومات طريفة جمعها المؤلف من خلال زيارته الميدانية للقبائل البدوية.. وفيما يلي نموذج مما كتبه الأستاذ زكريا عن

#### \* صحة البدو:

\* يداوي البدو مرضاهم بما تعلموه من أجدادهم بالوصفات وتقفه بطول الزمن في مداواة الجروح ويداوون أكثر الأمراض المستعصية بالكي وعندهم آخر الدواء الكي أو بأدهان وحشائش لهم يعرفونها. وأحذق أطبائهم من عشيرة الصليب فعند هؤلاء وعند بعض العشائر أهل خبرة في الطب من النساء والرجال. وجميع هؤلاء لا يعرفون من الطب إلا المعالجة بمخ عظام البعير المخ يستعمل بمنزلة دهان أو مرهم لأنواع الأمراض الخارجية أو الأدوية الباطنية ذات الأثر الخارجي كداء المفاصل والرثية والنقرس ونحوها.. وكل ما لا يعالج يداوى بالكي.

#### \* الزواج:

يتزوج البدوي بين سن 15 و 25 وقلما يتأخر إلى 30 بل ربما سبق الزواج هذا الأجل. والبدوي ينتخب خطيبته خلال المصادفات التي تبعتها حياة الترحال واختلاط الجنسين وتعارفهما منذ الصغر.

والبنات البدويات يتزوجن في سن مبكر جداً وقبل الحضرية بكثير لأن عيش البداوة وإقليم البادية ينميانهن بسرعة وينضج استعدادهن في وقت وجيز وحتى أنهما يعجلان بشيخوخة المرأة وهرمها، وعلى كل حال لا تستنار الفتاة البدوية في زواجها ولا تسأل حين خطبتها لأن الرأي لوليها يعطيها لمن يشاء ويبيعهها بيع السلع لمن أراد أو لمن يدفع له أكثر.

أما الجزء الثاني من الكتاب فيقع في 363 صفحة من الحجم المتوسط

وهو يتضمن الأبحاث الخاصة بكل عشيرة أو قبيلة بدوية. وقد استقى المؤلف مادة الكتاب من تجواله في البادية والاتصال بالعشائر أو النبهاء من العشائر العارفين لتاريخهم وعاداتهم وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عبد القادر عياش: "في رأيي أن أهم من كتب عن وادي الفرات من بين من اطلعت على كتاباتهم هو أحمد وصفي زكريا في كتابه عشائر بلاد الشام ولو امتد به العمر لكتب عن وادي الفرات وعن أبناء الفرات شيئاً كثيراً.

### \* ذكرياتي عن وادي الفرات قبل خمسة وأربعين عاماً

لعل هذا المقطع من ذكريات الأستاذ أحمد وصفي زكريا يدلنا على طريقته العلمية في تقصي الحقائق وجمع المعلومات المبعثرة هنا وهناك وفي الصدور بهدف إغناء أبحاثه وتوخياً للدقة والموضوعية:

"وعقب انحدارنا من خان الشعر وعندما صارت الشمس في كبد السماء بلغنا قرية مسكنة التي تبعد مئة كيلو متر عن حلب فوقفنا هنا للاستجمام.. ومسكنة هذه ضيعة تقع في غربي الفرات على بعد كيلو متر ونيف. وفيها مخفر للدرك وعدة حوانيت تحتوي على بعض الأشياء الضرورية وقد تبين لي من المسافة التي قطعناها خلال اثنتي عشرة ساعة إن معدل سيرنا في هذه المركبة الخشبية العرجاء ثمانية كيلو مترات في الساعة والعجلة من الشيطان.

وقد استنكرت يومئذ هذا الاسم مسكنة الذي يذكر بالذل والمسكنة.. وسألت نفسي من أين أتوا بهذا الاسم المكروه؟ ومن الذي أتى به ولماذا؟ بعد أن كان اسمها في العهد العربي بالس وفي العهد الروماني بارباليسوس.

فبعثوا واستدعوا لي اثنين من شيوخ مسكنة المفروض فيهم الفهم والعلم فقالوا ما تفسيره حسب مفهومي أنا وما أنقله بتصرف: إن سكان مسكنة هم أعراب متحضرين ينتمون إلى فخذ خفاجة من عشيرة الولدة الزبيدية وفسروا كلمة زبيدية بأنهم من أعقاب الفارس العربي الشهير عمرو بن معدي كرب الزبيدي دون أن

بدليل.

إن مربيته ومئات القرى والقرىات الممتدة بينهم وبين بلدتي الباب ومنج كانت من الجفتلكات السلطانية الخاصة بالسلطان العثماني عبد الحميد ثم عقب إعلان الدستور العثماني سنة 1908 تنازل هو عنها ودورها إلى الخزنة العامة فسميت الأملاك (المدورة).. ثم حدثني عن ماضي مسكنة فقلاً: نسمع من العارفين أن لمسكنة هذه موقعاً جغرافياً هاماً. فهي أقرب نقطة إلى حلب ويمر من أمامها كل يوم عدة سفن نهريّة تأتي من بلدة بيرة جك (قلعة البيرة) القديمة وبعد أن تمر بجرابلس وقلعة النجم ومسكنة والرقعة ودير الزور تنتهي في بلدة الفلوجة التي هي ميناء بغداد على الفرات. وإن هذه السفن والصح أن يقال هذه القوارب ذات القعر المسطح ما برحت على الشكل والحال اللذين كانت عليهما منذ آلاف السنين تنقل الركاب والمحاصيل الزراعية والسلع التجارية من شمالي بلاد الشام وجنوبي الأناضول إلى مدن الفرات حتى تبلغ الفلوجة. وهي الآن (في السنة الثانية من الحرب العالمية الأولى تنقل المؤن والذخائر والمدافع والبنادق إلى الجيش العثماني والألماني الواقفين تجاه الإنكليز الذين زحفوا من البصرة للاستيلاء على بغداد) وقالوا رداً على سؤالي إن البواخر النهريّة التي تعمل في نهر دجلة بين بغداد والبصرة يمكن أن تعمل أيضاً في نهر الفرات وتصل فيه وتبلغ مسكنة فقط. والدليل على ذلك أن الوالي العثماني (مدحت باشا) كان أول من أحدث مصلحة ملاحية تجارية على الفرات وصارت تصل بواخرها إلى مسكنة ثم ألغيت بانتقال الوالي المذكور من بغداد وعلى أثر اصطدام أحدها بحويجة قرب مسكنة على أن هذه الفكرة ظلت تراود الأذهان حتى انبرى أحد أثرياء دير الزور . قبيل الحرب العالمية الأولى . وراح إلى أوروبا واشترى أجزاء باخرة مستعملة تناسب أنهار تلك البلاد وحمل هذه الأجزاء إلى بيروت فحلب فمسكنة واشتغل مهندسوها بتركيبها مدة ستة أشهر حتى إذا برزت للوجود أوقدوها وزحفوا بها إلى الفلوجة بين

التصفيق والتهليل لكنهم يا للأسف لما أرادوا الرجوع والصعود بها عجزت لضعف محركاتها عن مقاومة تيار الفرات المنحدر لأنهم لم يحسبوا قوة هذا التيار ولم يركبوا في الباخرة المحركات المتحملة لقوة الصعود فتوقفت الباخرة عن العمل وداهمت الحرب العالمية أصحابها فلم يستطيعوا أن يتداركوا الأمر وذهبت أموالهم أدراج الرياح عندما غرقت السفينة.

### الثياب القديمة تنقل الموت للبدو:

وفي موضع آخر من مذكراته ومشاهداته يسجل هذه الملاحظة المؤلمة: كنت أشاهد بعض البدو يركضون وراء موتى قوافل المهجرين من تركيا الذين كانوا يتساقطون بحمى التيفوس فيعرون الميت مهما كان أنثى أو ذكراً من ثيابه ويلبسونها ويعدونها من غنائم العمر، وكان مما يضحك ويحزن لبس رجال البدو ثياب النساء الميتات ولبس نسائهم ثياب الرجال الميتين لا يفرقون هذه عن تلك. فكانت النتيجة المؤسفة أن المرض انتقل إلى هؤلاء البدو عن طريق هذه الثياب، وكم من مرة كنا نصل إلى بيت من الشعر منفرد وننادي فلا نجد مجيئاً ونرفع الرواق فإذا بالأب والأم والأطفال أموات من جراء العدوى من المهجرين الأرمن.

### اليمن كما شاهدتها:

عن ملابسات هذه الرحلة يقول: طوحت بي الأقدار في مطلع عام 1936 إلى اليمن وكان السبب في ذهابي أن بعض رجالات العرب الأفاضل.. قد اقترحوا على المسؤولين الالتفات إلى إصلاح مرافق بلادهم الفقيرة ولاسيما الزراعة التي لا مورد لشعب اليمن سواها.. وقع اختيارهم علي فذهبت إلى هناك.. واستطعت أن أترك في اليمن نباتات وأشجار مثمرة وغير مثمرة مما لم يكن لليمنانيين عهد به ثم رجعت إلى سورية بعد ستة أشهر.

هذا وخلال أعماله الزراعية في صنعاء والأفضية والنواحي التي مكنوني

من زيارتها كنت أتسلم والتقط المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية وغيرها فحصلت على نبذ منها نشرته بعد رجوعي في بعض المجالات المصرية والسورية. وقد حفزني إلى ذلك النشر كون اليمن لا يزال مجهولاً في جملته عندنا معشر العرب لم يكتب في اللغة العربية كتابات كافية عن جغرافيته الطبيعية والبشرية وعن أحداثه وكوارثه التي جرت في العهود الأخيرة. بينما الأتراك العثمانيون في زمن وجودهم هناك ألف بعض قوادهم وأطبائهم عدة كتب قيمة ورسوموا خرائط عسكرية وقام قبلهم منذ مائتي سنة وحتى الآن بعض المغامرين من الأوروبيين وجازفوا بأرواحهم وجاسوا بلاد اليمن وألفوا ونشروا عنه كتباً جميلة في لغاتهم وكانوا يتهافتون على زيارة مدينة مأرب عاصمة بلقيس ملكة سبا المذكورة قصتها مع النبي سليمان في التوراة والقرآن الكريم وقد قتل بعض هؤلاء الرواد في طريقه إلى هذه المغامرة وراح ضحية البحث العلمي.

واليمنانيون وأخص بالذكر "القيرون" أرباب الحرث الذين يسمونهم هناك (قبلين) جمع قبلى هم من أشجع الناس وأصبرهم على تحمل المشاق وشطف العيش وأبرعهم في حرب العصابات في الجبال.. ينطلقون ويقفزون من المرتفعات والمنحدرات كالفهود فلا تشعر كيف نبتوا من بين الجنادل والصخور وهم يسابقون الرواحل في الجري ويحسنون الكر والفر والكمون والتحصن وتسديد الضرب بالبنادق والطعن بخناجرهم الطويلة العريضة المعقوفة التي يسمونها (جنيات) وقد صاولوا في زمنهم الجيش العثماني وأرهقوه طوال عشرات السنين رغم شهرته وتفوقه عليهم بالمدافع والوسائل الحربية الحديثة.

### قصة اكتشاف نهر المرا:

كتب أحمد وصفي زكريا إلى مديرية الآثار والمتاحف قائلاً:  
في شمالي بلدة دوما جبل يشرف عليها وهو يمتد من الغرب إلى الشرق ويحسب من أعضاء سلسلة سنير وفي لحف هذا الجبل مجرى نهر صناعي يدعى (نهر

المرأ . نهر المرأة) منقور بعرض ثلاثة أمتار ممهد نظيفة كالإسمنت ذو هندسة التخطيط يثيران العجب وقد بنوا له في الوديين الهابطين من أعالي الجبل المذكور جسرين كبيرين الغربي منها ذو ثلاث قناطر والشرقي ذو خمس قناطر مبنية كلها بأحجار مكعبة ضخمة بإتقان وأحكام جيدين.

وهذا النهر (نهر المرأ) يمتد في لحف الجبل الذكور كيلو مترات عديدة من حرستا.. وإلى أن ينتهي في شمالي قرية الضمير ليعطيها ماء الشرب وماء الري معاً.

وهذا النهر من أجل الآثار حول دمشق.. لقد شغل هذا النهر فكري منذ أكثر من ثلاثين سنة كي أعرف أوله وآخره وكيفية اتصاله بنهر يزيد إلى أن تمكنت من معرفة ذلك. كما أن هناك في وادي بردى وعلى ضفته اليسرى قناة منقورة في الصخر نقرأ عجباً تمتد عشرات الكيلومترات تظهر للعيان تارة وتختفي أخرى فوق سوق وادي بردى وبسيمة والأشرفية والجديدة والهامة ودمر . وقد لاحظت أن معمل الإسمنت بدمر أخذ منذ عدة سنوات يقضم الجبل الذي تلك القناة فيه ولعل تلك القناة مازالت حتى الآن على حين أنها أثرية كان يجب أن تسجل في دائرتكم وتسان من العبث لأن (نهر المرأ) وقناة وادي بردى مهمة من الناحية التاريخية.

## كلمة أخيرة:

هذه لمحة عامة عن حياة هذا الباحث الجليل الذي أفنى حياته في البحث والتأليف.. والأسفار المحلية والعربية، لقد فقدنا بوفاته عالماً وأديباً وفاضلاً ومؤلفاً مخلصاً للعلم على أنه حي في كتبه ومؤلفاته العديدة النافعة. صحيح أن أحمد وصفي زكريا رحل عن عالمنا بهدوء وصمت دون أن تقام له في دمشق حفلة تأبين أو تكريم من قبل وزارة الزراعة أو نقابة المهندسين الزراعيين أو إحدى الجهات الرسمية.. كذلك لم يحظ بأي تقدير من الدول العربية التي عمل بها غير أن الأجيال العربية ستذكره عندما تقرأ أعماله ومؤلفاته التاريخية الرصينة. وتجدر الإشارة إلى أن التكريم الوحيد الذي حظي به بعد وفاته جاء من الأستاذ المرحوم عبد القادر عياش الذي كتب ترجمة حياته في كتاب صغير الحجم يتضمن ذكريات زكريا في وادي الفرات عام 1916.

علاوة عما كتبه عنه الأستاذ محمد أبو الفرج العش في مجلة الحوليات الأثرية وفي هذا الصدد فإن بعض مؤلفات الأستاذ زكريا سيعاد طبعها من جديد بعد أن نفذت من الأسواق بإشراف الأستاذ أحمد غسان سبانو وستظهر في المكتبات خلال فترة وجيزة.

إعداد: هاني الخير

المراجع:

. المفكرة الزراعية

. عشائر الشام

. ذكرياتي عن وادي الفرات . تحقيق المحامي عبد القادر عياش

. مجلة الحوليات الأثرية السورية

. مقال بقلم الأستاذ محمد أبو الفرج العش.

. غرائب اليمن كما شاهدها أحمد وصفي زكريا.